اللغة العربية مرآة تنعكس عليها قيم الإسلام

للأستاذ محمد عبد المالك الكتاني

(فاس)

يبدو لاول وهلة ان العلاقة التي يمكن ان تقوم بين الدين واللغة لا تعدو ان تكون علاقة عادية كالتي تكون بين كل الافكار او الحركات الفكرية التي تظهر في بيئة من البيئات وبين لغة تلك البيئة . وقد يكتب لتلك الافكار او الحركات من الانتشار خارج اللغة التي نبعت فيها أكثر مما يتحقق لها من الانتشار بلغتها الاصلية كعموم الافكار الفلسفية والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية . ولكن المتمعن في العلاقة القائمة بين الاسلام واللغة العربية يجدها تتجاوز هذا الحد بحيث تصبح **اللغة العربية هي المرآة التي تنعكس فيها قيم الاسلام** وتعاليمه وثقافته وحضارته وتتصل بها اتصال الشمس بشعاعها ، والمرآة بمنعكساتها ولا يلبث الاسلام ان ينتشر خارج الجزيرة العربية فلا يدخل بلدا الا ويفرض على اهله عن اقتناع تلقائي تعاطي العربية والاندماج فيها وبالتالي التخلي عن اللغة المحلية تدريجيا . هكذا **سار الاسلام وانتشار اللغة العربية جنبا الى جنب في البلاد المفتوحة .**

هذه الظاهرة الملحوظة في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية معه تؤكد التلازم القائم بينهما . فقد فتح المسلمون بلاد فارس وما وراءها فنشروا فيها تعاليم الاسلام ولغة القرءان ، لانهما متلازمان ، كما فتحوا مصر والشام وما وراء مصر غربا من أقطار الشمال الافريقي وبلاد اسبانيا، ونشروا في هذه الاقطار جميعها اللغة العربية . ولا مجال للجدال في ان هذه الاقطار كانت لها حضارتها المتفاوتة ولغاتها واصالاتها القومية، كما انه لا جدال في انها ساهمت في بناء الحضارة العربية الاسلامية وانماء الثقافة العربية لدرجة انها تناست او كادت لغاتها المحلية واندمجت اندماجا كليا في كيان الامة العربية بعواطفها وثقافتها وتاريخها ، فاصبحت اليوم الامة العربية التي كانت محدودة في شبه الجزيرة العربية امة تستوعب اقطارا تمتد من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي يرجع الباحث الى تاريخها القديم فتختلف به مسارب التاريخ ما بين مجاري الحضارات الفرعونية والفنيقية والفارسية والقوطية والبربرية .

فلماذا كانت العلاقة بين اللغة العربية والدين الاسلامي بهذا القدر من التواشج والالتحام ؟ يرجع ذلك الى امرين :

الامر الاول أمر يعم اللغات الانسانية ، وهو سنتها او قانونها الذي لا يتغير ، وفحواه ان **اللغة هي الصورة التي تتجسد فيها قومية الامة وخصائصها الفكرية والوجدانية** ، اذ اللغة مؤسسة اجتماعية أو ظاهرة اجتماعية بهذا المعنى الذي يجعلها أمرا ضروريا لكل اجتماع بشري بالمعنى المألوف ، وبالمعنى الذي لا يتأتى لمجتمع ايجاد التواصل الانساني الا به ، ولا تثبيت قوالبه واشكاله الا بواسطته ، فكانها الكيان

الاجتماعي الحقيقي للامة بكل ما يتسع له معناه او محتواه من مضامين اخرى كالتقاليد والقيم ومناحي التفكير والوان الميول والاذواق ، كل ذلك يتجسد في اللغة كما تتجسد قيم التبادل الاقتصادي في قطع المسكوكات واوراق العملة ، فضلا عن كونها تعكس طاقات ونزعات في النفس لا تخفى على من يتاتى له ان يوازن بين اللغات على ضوء هذا الاعتبار .

والامر الثاني يهم هذه اللغة ولا يهم سواها ، وهو الدين الاسلامي ، فالدين الاسلامي بالنسبة للمجتمع المسلم هو البوتقة التي تنصهر فيها الشخصية المسلمة، وطابعه هو الطابع العام لحقيقة الجماعة الاسلامية كما كانت او كما ينبغي ان تكون . ولا عبرة هنا بما قد يرين على هذه النفسية المسلمة في وقت من الاوقات من ادران تحجب عن عين الرائي واقع الشخصية الاسلامية هذا الدين الاسلامي كان بتاثيره العميق بالقدر الذي اشرنا اليه ، وذلك بفضل رسالته التي تلائم الفطر الانسانية ، وبفضل القرءان ذلك الكتاب السماوي المعجز الذي بلور تلك الحقائق كلها في صيغته المعجزة التي نلحظ فيها معطيين :

المعطي الاول هو مضمونه الروحي الذي يتصل بالنفس ويهيمن على الفكر ويخاطب لطائف الانسان من روح وعقل وقلب ، ويسري في كيانه سريان الشعاع في اديم المرآة . وحسبك من ذلك ان **المسلم لا يخاطب في صلاته خالقه الاعلى بلغة اشرف من لغة القرءان** ولا بتعبد يستقطب توجهات الروح والفكر وسبحاتهما اسمى من تعبير القرءان . لانه وحده افضل صيغة لخطاب الادنى للاعلى كما كان خير صيغة لخطاب الاعلى للادنى .

المعطي الثاني هو **اعجازه اللغوي** الذي ظل مناط الاحتجاج لنبوة الرسول عليه السلام وللحقيقة التي تقررها الاية : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين»

على ضوء هذا التقديم يمكن الاجابة عن الاسئلة المطروحة بكل يسر ، **فالعلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية علاقة وطيدة** ، اذ لولا **الاسلام لما كان لهذه اللغة ان تحل محل لغات عالمية في العصر الوسيط، وتصبح لغة ازهى الاداب الانسانية في عصر الاسلام الذهبي** . وما كان اغنى امم اللاتين والهند والفرس والسريان وغيرهم عن استبدال لغة العرب في بعض حقب التاريخ بلغاتهم . **وهذه اللغة بدون الرسالة الاسلامية ليست سوى لغة امة شاعرة بلورت مشاعرها في لغتها** ، وهذه ليست بالمزية التي تتغلب بها لغة على لغة ، اذ لكل امة من تلك المزية حظها الموفور بالقدر الذي يجعل كل امة تتعصب للغتها وتتماطف معها دون غيرها . ولكن هذه العلاقة السببية لا تنعكس ، بمعنى انه **لا يصح القول بانه لولا اللغة العربية لما انتشر الاسلام** ، لان اللغات لا تنتشر لمزايا فنية خاصة بها ، فالمزايا صفات نسبية وحظوظ مشتركة يصبغها الانسان الاجتماعي على لغته ، وانما **تنتشر اللغات بالافكار الجديدة والاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية ونفوذها مما تشمله الحضارة .**

ولا نعتقد ان المغرب قد استعرب عبر تاريخه الاسلامي الا لما يكمن في هذا الاستعراب من تحقيق تواصل مباشر بالاسلام واندماج مع الحاملين لرسالته وانصهار في بوتقته بصورة تلقائية . والا لما كان له ان يؤثر لغة من اللغات على لغته المحلية ، وهو قد عرف دخول اللاتينية وانتشارها في الشمال الافريقي وصيرورتها اللغة الرسمية والادبية وقبلها اللغة البونيقية في فترة من فترات تاريخه ، ولكنه ظل بنجوة منهما الى ان **جاء الفتح الاسلامي واذا بالعربية تحمل ذلك الاشعاع الديني والحضاري** الذي لم يجد بدا من التاثر به والاندماج فيه . على انك لو ازلت من كل لغة عالمية عامل الغلبة السياسية او الاشعاع الحضاري او النفوذ الاقتصادي لبطل طابع العالمية فيها وانحصر تاثيرها ضمن بيئتها المحدودة .

وهذا التلاحم بين العربية والاسلام له دليل ثان هو الجواب نفسه عن السؤال الثاني ، وهو ان **الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الاسلام** الاولى من قوة وضعف في البلاد الاسلامية الناطقة بها حتى ان المستعمر الذي استولى على هذه البلاد ورام ان يطمس معالم الاسلام في مجتمعاتها باعتباره قوة هذه المجتمعات لم **يفرق في نظره للاسلام بين الدين واللغة** ، فحاول ان يقضي على الوعي الاسلامي السليم بضرب حصار على اللغة العربية وثقافتها والتمكين لثقافته الاجنبية حتى ينسف بذلك القاعدة الاساسية التي تقوم عليها شخصية المجتمعات الاسلامية . والواقع انه استطاع ان يحقق من مؤامرته قسطا غير ضئيل في هذا المضمار ، وذلك عندما زلزل ثقة الاجيال التي نشات في حكمه بلغتها

الوطنية ، واقام جيلا من الناطقين بلغاته منفصلين عن ثقافتهم ودينهم ، وربما استخدمهم فى الاستخفاف بأصالتهم الوطنية وتراثهم الحضاري .

اما الشعوب الاسلامية غير العربية فلا يمكن تجريدها من روحها الدينية الاسلامية لمجرد انها ليست شعوبا عربية ، ولكن الذي نفترضه ـ مع اطلاعنا المحدود على لغاتها ـ انها **بدون العربية لا تستطيع التواصل بعمق مع الاسلام بالقدر الذي يتاح للعرب انفسهم** . فلو اتيح لها ان تستعرب لكانت اقوى تفاعلا مع الامة العربية واكثر تلاحما مع الكيان الاسلامي . وذلك ما يمكن التعبير عنه بالفراغ الدينى الذي استغلته اللغات والثقافات الغربية غداة سيطرتها عليها فى جعلها تنتمي فى اتجاهاتها انتماءات اجنبية او تظل طافية على سطح الحياة الدولية تجرفها التيارات .

ومع ذلك **فالفكر الاسلامي فى تلك البلاد لم يكن له بد من التاثر بلغة القرءان** كما لم تخل تلك الشعوب بحكم روحها الدينية من تعلق بالعربية وايمان بعظمتها. بناء على ذلك كله نستخلص العبرة التالية وهي انه **لا نهضة صحيحة للامة الاسلامية الا بتحررها من التبعية اللغوية والثقافية والرجوع الى استجلاء اصالتها الحضارية والثقافية التي قامت على اساس الاسلام واللغة العربية** .